الآفاق الحضارية للوجود الإسلامي في الغرب*

إبراهيم محمد زين**

تقديم: ما قبل الكتاب

هذا الكتاب يحتوي على مقالات عشر وتوطئة، جمعها المؤلف في صعيد واحد، باعتبارها تعالج موضوعًا واحدًا وينتظمها نسق فكري يصدر عن مقولات وقناعات يأخذ بعضها برقاب بعض، فهي تدور حول موضوع رئيس واحد هو الوجود الإسلامي في الغرب. إن هذا الوجود الإسلامي قد انتقل من مرحلة كونه وجودًا طارئًا أقصى ما يتطلع إليه فيه الحفاظُ على الهوية الإسلامية إلى وجود يراد له أن يكون جزءاً فاعلاً ومؤثرًا من النسيج الحضاري لأوروبا، بحيث يستطيع فيه المسلم أن يؤدي دور الشهادة على الحضارة الأوروبية من موقع العطاء والأخذ وفق منهج الإسلام، وفيه يكون المسلم مسلمًا أوروبيا. ولما كان لهذا الانتقال تبعاتٌ فكرية وعقدية وتراتيب عملية فلا بد من بيان موقف الإسلام من ذلك كله حتى تستبين معالِمُ النظر العقدي والفقهي الذي يهدي حركة ذلك الوجود وفعله.

ولأجل ذلك جاءت قسمة الكتاب إلى بابين، أولهما يُعنى بـــ"العطاء الحضاري

---

* للأستاذ الدكتور عبد المجيد النجار، طبع المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية، باريس، 2005.

** الأستاذ في قسم أصول الدين ومقارنة الأديان وعميد المعهد العالمي للفكر والحضارة الإسلامية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، البريد الإلكتروني: ibrahimz@iiu.edu.my

للوجود الإسلامي في الغرب"، والآخر "تفعيل الدور الحضاري الإسلامي في الغرب". فالباب الأول يعالج القضايا التي تعنى بالأسس النظرية والرؤى الكلية في مجال العقيدة والقيم ومنهج النظر إلى الأحياء والأشياء. أما الباب الثاني فهو لبيان تفاصيل ذلك الدور الحضاري المتعلق بكيفية أداء الشهادة على الناس، والتعليم الإسلامي في الغرب ومؤسساته، والدعوة الإسلامية في الغرب ومؤسساتها، وكيفية الاستفادة من ظاهر هجرة العقول المسلمة إلى الغرب، وأخيرًا بيان الدور الحضاري لمؤسسة الوقف في الغرب.

والناظر في الكتاب في شكله النهائي يرى كما لو أنه قد كتب للتعبير عن عنوانه، ولكن بسبب التكرار الذي نجد للكاتب فيه عذرًا بسبب استحالة التخلص منه طالما أن هذه المقالات كتبت في الأصل في مناسبات مختلفة. ومع ذلك فإن الكتاب تنتظمه وحدةٌ موضوعية وحجة أساسية، وكأن أجزاءه المفترقة كانت حاضرة في ذهن الكاتب وهو يؤلف كل جزء منها على حدة، أو قل كأن الكتاب يمثل الخيارات العلمية الواعية التي تبناها المؤلف وصار يتأمل فيها ويُعْمِل فيها الرأيَ ويديم التفكير في تمحيص ما تؤدي إليه من مآلات في الفكر والعمل. وهو في كل ذلك يحاول الصدور عن موقف مبدئي قائم على غاية الإنسان في الحياة كما قررها القرآن الكريم، وكيفية تحقيق ذلك الغاية الوجودية في إطار وجود إسلامي في الغرب قائم على منطق الشهادة على الناس بحيث يمكن له أن ينتقل من طور الحفاظ السلبي على الهوية الإسلامية إلى طور إيجابي يقوم على الأخذ والعطاء في إطار منطق الشهادة على الناس.

إن الكتاب بمقالاته المختلفة أنه في اعتقادنا تعبير عن أزمة شخصية عكف المؤلف على بيان السبل في التعاطي معها من أفق موقف استراتيجي، هو كذلك تعبير عن طريقة جديدة في تناول مع إشكالية التعامل مع الغرب، كمعامل منهجي أرّق مضجع مفكري الإسلام في الحقبة الاستعمارية ومرحلة ما بعد الاستعمار على السواء. فالكتاب محاولة لتوظيف كل الخبرات الفكرية والعلمية التي اكتسبها المؤلف في تاريخه

الفكري الطويل في التأليف والكتابة والتدريس والمساجلات الفكرية وغيرها من أوجه النشاط العلمي والعملي. وإنما يميز أطروحة النجار أنه ينظر إلى إشكالية كيفية التعامل مع الغرب ليس من موقع أن الغرب هو الآخر الدخيل أو البعيد الذي ينبغي تجنبه والحذر منه خوفًا من هيمنته، ولكن من منطلق أن الغرب هو صاحب الشأن الذي يراد به الخير، وأن حضارته يمكن لها أن تجد لها في الإسلام منقذًا لها من أزماتها الوجودية القاهرة، وأن وحدة التحليل هي ليست الأنا والآخر المتقابلين والمتنافسين، ولكنها ذلك الهم الإنساني الكلي والأخوة الإنسانية الجامعة التي نادى بها الإسلام في عالميته وإنسانيته.

إذاً زمن ما قبل الكتاب يمثل أزمة وجودية شخصية للكاتب جعلته يجيل النظر في موضوع كيفية التعامل مع الغرب من موقع مَنْ هو في داخل الظاهرة الغربية لا مِنْ موقع مَنْ يقف خارجها، ويكون الغرب عنده هو الآخر المعتدي. ولذلك جاءت توطئة الكتاب تعكس اتجاه تأكيد معنى "التعارف" ومنطقه الإنساني الرصين، وتدعو إلى نبذ الصدام ومنطقه الأجوف. وهذا الكتاب عن الآفاق الحضارية التي تتجاوز المنطق السياسي والتحولات الجغرافية الإنسانية لتعالج الظاهرة الإنسانية وغاياتها الحضارية العليا فتجيب عن الأسئلة الوجودية الكلية، ثم لتنتقل من ذلك المستوى الفلسفي العام إلى ترتيب منهجية في التعامل قائمة على منطق تبادل المنافع وفق نهج الأخذ والعطاء دون الذوبان في الآخر أو الوقوع في حمأة صدام تراجيدي لا فكاك منه. وتبعًا لهذا الموقف الوسطي المتوازن تبلور عند المؤلف فقه الأقليات بمنطلقاته الحضارية العقدية وأصوله الفقهية التي يُرجع فيها إلى القرآن والسنة النبوية، ويُستَهدى فيها بالتراث الفقهي، وتُحكَّم فيه مقاصدُ الشريعة دون الافتئات على غايات الإسلام في الوجود الإنساني أو التنصل عن أحكامه الثابتة. إن في موقف زمن ما قبل الكتاب وما بعده زاوية للنظر جديدة أسهمت بصورة جد مفيدة في فهم تحولات الكتابة حول موضوع "كيفية التعامل مع الغرب".

قضايا الكتاب الأساسية

جاء الباب الأول لبيان الجانب النظري لقضايا الوجود الإسلامي بالغرب، ولذلك عني الفصل الأول بتحقيق الأسس الفلسفية للمشروع الحضاري الإسلامي في كلياته وبيان مقتضيات ذلك التحقيق في إطار الوجود الإسلامي في الغرب الذي كان وجوداً طارئاً وأريد له أن يحقق مقتضيات المشروع الإسلامي بأبعاده الثلاثة المتمثلة في الخلافة في الأرض، والشهادة على الناس، وارتفاق الكون. ويعتقد المؤلف أن المشروع الحضاري الإسلامي في دورته الأولى كان منقذًا للبشرية بدفعة النبوة، لكن يرجى له أن يكون منقذًا للبشرية في الألفية الثالثة، بعد تجربة الإنسانية مع الحضارة الغربية التي حققت منجزات مادية عظيمة، ولكنها أرهقت الإنسانية في مستوى الكسب المعنوي والأخلاقي والذي انعكس سلبًا في التفكك الأسري ومعدلات الانتحار المرتفعة بسبب غياب المعنى في حياة الإنسان. ويرى النجار أن العبء الأكبر في ذلك يقع على أولئك الذين خيروا الحضارة الغربية عن قرب وصاروا جزءاً من نسيجها العملي، فواجبهم تحقيق مقتضيات ذلك المشروع ببيان ذلك الفقه الحضاري الموصول بحبال ثلاث أولها: حبل يصله بالله تعالى ليبين له الغاية من هذه الحياة متمثلة في معنى خلافة الله في الأرض، وثانيها حبل يصله بالناس ليجعله شاهدا عليهم شهادة علم وتبليغ وإنقاذ، وحبل ثالث يصله بالكون فيجعل الكون مسرحاً لابتغاء الفضل والحرص على المحافظة عليه وتكنيله.

أما الفصل الثاني فقد ركز على قضايا العقيدة الإسلامية، ومنشأ هذا التركيز هو أن أهم عوامل النهضة والتحضر في تاريخ الشعوب هي الفكرة الفاعلة التي تقدم تصوراً عن الإنسان والحياة والكون والوجود سواء في المستوى الفلسفي العام أو المستوى الديني الخاص. فهذا التصور للحقائق الكلية لا يحدث النقلة الحضارية المنشودة إلا إذا كانت الكيفية التي استقر بها ذلك التصور في نفوس المؤمنين به من مجرد تصور ميتافيزي إلى إيمان عميق يستبد بالنفس الإنسانية ويحرك إرادتها بصورة إيجابية نحو الفصل الحضاري. ومن هذا المنطلق قدم المؤلف تفسيرًا للحضارة الغربية

بالنظر في أصولها المسيحية، وكذا الحال بالنسبة للحضارة الإسلامية. ومن هذا المنطلق أيضًا أراد المؤلف أن يقدم لنا تفسيرًا حضاريًّا للطاقة التي تنطوي عليها العقيدة الإسلامية، وأن يبين أن هذه الطاقة الحضارية تنطوي على جملة من التصورات الفاعلة في اتجاه الدفع الحضاري، مثل أن العقيدة الإسلامية قائمة على تصور يدفع باتجاه التعمير المادي، وذلك بسبب "شرفية المادة" في التصور العقدي الإسلامي، وكذلك ما أسماه المؤلف بـــ"الاستعلام المادي" الذي يدفع المؤمن لمعرفة القوانين الكونية المادية، وأخيرًا "الاستنتفاع الكوني". فإذا كان النظر إلى الطبيعة وفق هذا المنظار الثلاثي، فلا شك أن الكون الذي يتصوره المؤمن على هذا النحو هو كون مأنوس يتفاعل معه الفرد بإيجابية ووعي وحرص على تنميته وتكميله.

ثم ينتقل المؤلف لبيان طاقة الترقية التي تنطوي عليها العقيدة الإسلامية في مستوى ترقية الفرد والجماعة، ومن بعد ذلك ينتقل إلى النظر في شأن التفعيل الحضاري للعقيدة الإسلامية، فيؤكد أن التفعيل الحضاري للعقيدة لا يقع على الوجه المطلوب إلا بترشيد الفهم العقدي والتفعيل الإرادي للعقيدة في النفوس. ويبتكر المؤلف جملة من المصطلحات القيمة لبيان معاني ترشيد الفهم العقدي ومعاني التفعيل الإرادي للاعتقاد، وينظر إلى ما قام به الإمام الغزالي من تنبيه المسلمين إلى أهمية النظر إلى الجوانب المتعلقة بمحبة الله والخوف منه ورجاء رحمته والربط بين الجانب التصوري العقدي والأخلاقي الفعلي العملي والبعد عن النظر إلى العقيدة في جانبها الكلامي الحجاجي. وقد سلك النهج ذاته ابنُ خلدون عند نظره في شأن العقيدة، واتبع المسلك ذاته العلامة محمد إقبال.

فهذا الربط بين المعاني الروحية والنظر العملي العقلي يجعل العقيدة محركاً فاعلاً في ترقية الفرد والجماعة، ويطلق طاقة حضارية تربط بين الإيمان بالله واليوم الآخر وبقية التصورات العقدية وبين عمارة الأرض والشهود الحضاري على الناس. ويرى المؤلف أن هذا التصور العقدي الإسلامي يستدل عليه بالمنطق العقلي وبالشهادة التاريخية. ويمكن لهذه الأمة بما تملكه من مقومات سامية أن تصحح مسار الحضارة

الإنسانية وأن تنتقل من واقع الخمول إلى واقع الفاعلية الحضارية. ثم يختم المؤلف مقالته في هذا الشأن بالنظر في المهمة المنوطة بالمسلمين في الغرب، وإمكانية تفعيل هذ التصورات العقدية في حياتهم ليكونوا جسراً فاعلاً في تصحيح مسار العلاقة بين الحضارة الغربية وبين المسلمين، لصالح الإنسانية جمعاء. ويبدو جليًّا أن خاتمة هذا الفصل أضيفت إليه حتى يتسق هذا الجزء من البحث مع موضوع الكتاب الأساسي وهو الوجود الإسلامي في الغرب.

أما الفصل الثالث فيعالج قضية في غاية الأهمية، وهي معادلة الوحدة والتنوع في مجال الفكر، وكيف يمكن إحداث موازنة دقيقة تعنى باحترام التنوع الفكري دون أن تخل بالوحدة الإسلامية الجامعة. وقد حوَّم المؤلف حول معاني التربية الفكرية والمذهبية، متخذًا من التاريخ الإسلامي والكيفيات التي أسست بها الجامعة الإسلامية الأولى في عهد النبي ﷺ لاستخلاص مبادئ ترشد التربية الفكرية وتسهم في إحداث كالوحدة المذهبية تتيح قدرًا من التنوع والتعدد المتكامل في إطارها، وقرر المؤلف جملة من المبادئ المهمة مثل حرية الرأي والنقدية المقارنة والشمولية والكلية والواقعية والحوارية، ورأى أن في التزام هذه المبادئ عاصمًا فكريًّا في إحداث معادلة متوازنة بين الوحدة والتنوع تثري الحياة الإنسانية، وأنه إذا ما استفاد المسلمون في الغرب من هذا الإرث الحضاري المميز فإن ذلك سيؤدي إلى إسهام رشيد في تقويم الفهم والممارسة لمعادلة الوحدة والتنوع في الحضارة الغربية التي كثيرًا ما تختل فيها هذه المعادلة في اتجاه الصراع والعنف الدموي عندما يتحول الآخر إلى نقيض يجب نفيه.

ولتطوير معاني معادلة الوحدة في التنوع أو التنوع في إطار الوحدة في المجال الفكري انتقل المؤلف في الفصل الرابع لمعالجة قضية السماحة الإسلامية في المجال المذهبي وبيان القيم الأخلاقية والمعاني الإيمانية التي ترتكز إليها وتزكو بها ثم كيف يمكن للمسلمسن في الغرب ممارسة هذه المعاني في حياتهم اليومية ليقدموا نموذجًا عمليًّا في السماحة. وختم المؤلف هذا الباب بمبحث في غاية الأهمية يتعلق بالرؤية الإسلامية

لمشكلة البيئة، وعلى قصر هذا المبحث إلا أنه يتضمن جملة من التصورات القيمة التي توصل إليها المؤلف من قبل في كتاب قيم حرره في هذا الشأن لمعالجة مشكلة البيئة من منظور إسلامي[1]. وهذه التصورات تفيد كثيرًا في دفع اتجاهات البحث العلمي وترشيد النظر في مسألة البيئة إلى قضايا جد حيوية ومفيدة في فهم ومعالجة قضايا البيئة. وبذلك يكون الوجود الإسلامي في الغرب قد أسهم بنصيب وافر في فتح أفق جديد لمعالجة مسألة من أعوص مسائل الحضارة الغربية المعاصرة.

إن الرابط بين فصول هذا الباب هو أنها قد عالجت الرؤية الكونية الإسلامية التي يجب أن يحملها الوجود الإسلامي في الغرب، والتي تمثل الحبل العاصم له من الذوبان الكلي في الحضارة الغربية. وهي في الوقت ذاته تمثل منبعًا للقيم الإنسانية التي يمكن أن تثري الحضارة الغربية وتخرجها من مأزقها المعرفي والقيمي.

أما الباب الثاني فقد احتوى على خمسة فصول كلها تتعلق بمعالجة مسائل عملية متمثلة في بيان معنى الشهادة على الناس، ومشكلات مؤسسات التعليم الإسلامية والدعوة الإسلامية، والبعد الرسالي لهجرة العقول، وأخيرًا مؤسسة الوقف الإسلامي بالغرب. ويعتقد المؤلف أن هذه القضايا من أهم المسائل التي تتعلق بتفعيل الدور الحضاري للوجود الإسلامي بالغرب. ولأهمية الشهادة على الناس، فقد أفسح له النجار حيزًا كبيرًا وقام بتشقيق معاني دقيقة لبيان أبعاد ذلك الدور ومستوياته المتعددة، وكيفية تأهيل المسلمين للاضطلاع به. فلا بد للشهادة على الناس أن تكون مواكبة للحقبة المهمة التي يمر بها الوجود لإسلامي في الغرب، حيث يلاحظ المؤلف أن هذا الوجود قد عبر من مرحلة الوجود التلقائي العفوي الطارئ إلى مرحلة الوجود الدائم. وهذا يعني أن هذا الوجود عليه أن يعي أهمية القيام بمهمة المسلم في الحياة. وقد لاحظنا في الباب السابق أن المؤلف جعل مسألة الشهادة على الناس أمرًا جوهريًّا في

---

[1] يشير المراجع إلى كتاب "**قضايا البيئة من منظور إسلامي**" الذي صدر عن مركز البحوث والدراسات بقطر سنة 1999/1419 وحاز المؤلف به على جائزة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني.

الرؤية الكونية الإسلامية، ولذلك جاء هذا الجزء من البحث لبيان تفاصيل تلك الشهادة على واقع المسلمين في أوروبا أو الغرب على وجه العموم، واضعًا في الاعتبار ذلك التحول التوعي في الوجود الإسلامي هناك، الأمر الذي يعني أن هذا الوجود يمكن أن يحمل رسالة الإسلام بكل أبعادها الحضارية، ويكون جسر تواصل بين المسلمين والغرب. ومن باب تكثير المعاني وتشقيق المصطلحات رأى المؤلف أن الشهادة تكون "شهادة بيان" أو "شهادة إفادة"، وذلك في إطار أن يكون وجود المسلمين في الغرب قائماً على الأخذ الرشيد بمنجزات الحضارة الغربية والعطاء السديد لتلك الحضارة عن طريق التفعيل الحضاري للرؤية الكونية الإسلامية لصالح نفع تلك الحضارة ودفع القيم والمعاني الإنسانية فيها من أجل إخراجها من مأزقها الفكري والعلمي والقيمي، وذلك لا يتأتى في رأيه إلا بـــ"التفقه في الواقع المشهود" الذي رأى المؤلف أن مفاصله تنحصر في "التفقه في الأفكار" و"التفقه في منهجية الفكر". ثم ينتقل النجار إلى بيان مضمون الشهادة ويبسط ذلك في جملة من المحاور فيها فهم عميق للحضارة الغربية وما آلت إليه في شأن القيم ومناهج النظر العقلي، ويختم هذا الفصل بالتعريف بمنهج الشهادة بمحاوره المختلفة التي تقوم على منهجية في التعاطي مع الغرب من موقع الشراكة الحضارية.

أما الفصول الثاني والثالث والرابع فقد عقدت لمعالجة قضايا عملية تتعلق بالنقلة التي يجب أن تحدث في شأن التعليم ومؤسسات الإسلامية بالغرب وفق الرؤية الاستراتيجية الجديدة القائمة على الشراكة الحضارية وعلى أساس تلك النقلة النوعية للوجود الإسلامي في الغرب التي سبق الكلام عليها. ويقدم المؤلف فهمًا لقضايا التعليم نابعًا من تجربته الشخصية في المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية في فرنسا مما فيه دلالة على انتقال التعليم الإسلامي من مستوى الحفاظ على الهوية الإسلامية بتعليم ضروريات الدين إلى تعليم إسلامي يواكب المرحلة الجديدة لذلك الوجود وقد قدم لنا المؤلف تأريخًا مفيدًا لذلك التعليم والأطوار التي مر بها، وكذلك الحال بالنسبة للدعوة

الإسلامية في الغرب. وأخيرًا عالج المؤلف مسألة الاستفادة من جرة العقول وفقًا لهذه الاستراتيجية الجديدة في النظر لهذا الوجود الإسلامي بالغرب. وهو في كل ذلك ينطلق من مشاهداته اليومية وتفاعله العملي مع مستويات ذلك الوجود ومحاولة التنظير للكيفيات التي يمكن بها لهذا الوجود الإسلامي أن ينتقل إلى مرحلة التفعيل الحضاري في ظل مبدإ الشراكة الحضارية.

ويختم المؤلف مباحث هذا الباب بفصل لمناقشة مؤسسة الوقف الإسلامي في الغرب من جهة التأصيل الفقهي الإسلامي والنظم القانونية الغربية، وبيان الأهمية القصوى لهذه المؤسسة في دفع حركة الوجود الإسلامي بالغرب بما توفره من دعم مادي لإنجاح المؤسسات التعليمية والدعوية، حيث إن النقلة المرجوة لا يمكن أن تتم بالصورة المطلوبة ما لم تتوافر لها الموارد المالية والمخرج العملي المجرَّب من هذا المضمار هو مؤسسة الوقف التي يمكن بواسطتها إنجاز مهام هذه المرحلة الاستراتيجية للوجود الإسلامي في الغرب من حيث إنشاء مؤسسات تعليمية وبحثية ودعوية، وذلك ليكون طريق الأخذ والعطاء قائمًا على المعرفة الرشيدة لا على التخرصات والظنون.

ما بعد الكتاب

هذه الملحوظات يقصد بها النظر في تحولات الكتابة في شأن كيفية التعامل مع الغرب عند علم من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر. فهذا الكتاب بمباحثه المختلفة وثيقةٌ مهمة للغاية في هذا الصدد، كيف يمكن لنا أن نفهم هذه التحولات؟ وكيف يمكن لنا أن نرى المباحث العلمية العامة المنـــزلة على واقع جديد يكون فيه المفكر أو الداعية أو الفقيه المسلم جزءاً من النسيج العملي للحضارة الأوروبية؟ إن ما سعى إليه النجار هو بيانٌ لمقتضيات التحقيق لرسالة المسلم وشهادته على الناس وفق شروط حضارية جديدة قوامها الشراكة لا التفرد أو الهيمنة. فالحضارة الغربية ليست – في المدى المنظور على الأقل – مهددة بالفناء، ولا بالوراثة الإسلامية، وإنما يجب أن

تستبدل دعواها للعالمية بعالمية إسلامية هي أكثر إنسانية وتمثلاً للقيم الحضارية العالمية النافعة للإنسانية جمعاء.

وإن كان في هذا التحول من فائدة مرجوة فهو أنه أكثر واقعية وأشمل إنسانية في شأن النظر لدورات الحضارة الإنسانية، وهو دعوة لتأسيس سلام عالمي قائم على العدل لا على نفي الآخر أو إذلاله وفوق هذا وذاك فيه معنى سماحة الإسلام، ودعوته للتعاون على البر والتقوى، ونبذ للصراع الدموي المقيت، وتقديم بديل علمي وعملي لأطروحة صراع الحضارات يكون فيه الوجود الإسلامي بالغرب جسرًا للتواصل الحضاري والثقافي، وهذا يخولنا أن نسأل السؤال الآتي: لو لم يتح لأصحاب هذا التوجه الجديد البقاء في الغرب ومحاولة النظر لهذا الوجود الإسلامي في الغرب باعتباره وجوداً دائمًا، هل كان بالإمكان تطوير مثل هذه الأفكار؟ وربما كان لهذا السؤال صيغة أكثر ملاءمة وقوة مما نحن بصدده إن قلنا إن رواد الحركة الإسلامية الأوائل رأوا أن وجودهم بأمريكا أو غيرها وجود طارئ، ومن ثم حكموا على الحضارة الغربية بأن الفناء مكتوب عليها، وأنها ليست مؤهلة لقيادة الإنسانية، وأنه لا فائدة من إصلاحها، وأن البديل لكل ذلك هو البديل الإسلامي الذي له مساحته الجغرافية المعروفة ووضعه الاستراتيجي والجغرافي السياسي التقليدي. ولذلك كان منهج التعامل مع الحضارة الغربية هو منهج الاختيار والاختبار. ومما لا مجال للشك أن بين الرؤيتين أو الموقفين بوناً شائعاً، على مستوى النظر والعمل.

ومن ثم يترتب على هذا الوضع الجديد سؤال أحسب أنه من الأسئلة المهمة التي يعتد بما تنتجه من إجابة أو توجيه للنقاش ألا وهو: ما دور أولئك الذين خبروا الحضارة الغربية من الداخل وتربوا على منهج الأخذ والعطاء في إعادة صياغة منهج التعامل مع الغرب بالنسبة لسائر المسلمين؟ وكذلك هل سيأتي علينا زمن يكون فيه رواد الفكر الإسلامي ودعاة الإصلاح فيه ممن هم جزء من الوجود الإسلامي بالغرب؟ وهل سيمارس هؤلاء وصايةً فكريةً على أولئك الذين بقوا جزءاً أصيلاً من

لحمة مجتماعتهم الإسلامية التقليدية باعتبارهم جزءًا من واقع التخلف الحضاري ولا يمثلون الصوت الإسلامي الرشيد؟

كل هذه أسئلة قد يقال إنها أسئلة ضعيفة صدرت من موقع عقلية التآمر والتوجس، لكن اختلاط المشاريع سيكون واحدًا من أهم المترلقات الفكرية في هذا الصدد، فما لم يكن موقع الشهادة على الناس هو موقع الانحياز الواضح لمبادئ الإسلام سوف يختلط الحابل بالنابل في هذا المجال، وأحسب أن المؤلف قد أفرد لشأن الشهادة على الناس ذلك الحيز الواسع لهذا السبب.

لا يملك القاؤئ وهو يتابع فصول هذا الكتاب إلا أن يبدي إعجابه بالبراعة التي يتمتع بها المؤلف من حيث تكثير المعاني وتشقيق العبارات للتعبير بدقة عن الفواصل المنهجية والفكرية الدقيقة لما نحن فيه. ولقد أحسن المؤلف بتطوير لغة علمية جديدة للتعبير عن هذا الواقع الجديد، دون الوقوع في تفريعات لغوية يضيع بين ثناياه المعنى المراد، ودون اجترار كلام لا صلة له بما نحن فيه من معاني جديدة يراد لها أن توصف على وجه الدقة حتى يستبين سبيلها.

ولئن نجح المؤلف في التنظير لهذا الوجود الإسلامي بالغرب في عمومه فإن معرفته وتجربته الشخصية المحدودة بالوجود الإسلامي في أوروبا قد قصّرت في الوفاء ببيان أبعاد ذلك الوجود في أمريكا الشمالية، فلعل الأصوب في هذا الصدد هو وصف مادة الكتاب بأنها تعني بالوجود الإسلامي في الغرب الأوروبي، خاصة وأن الوجود الإسلامي في أمريكا الشمالية له أولويات مختلفة تمامًا عما هو الحال في أوروبا. فإن المجهود العلمي الذي قام به أساتذة الجامعات من المسلمين أو العرب المسيحيين في التعريف بالحضارة الإسلامية والدفاع عنها والمناداة بقيم علمية وخلقية جديدة تتجاوز إطار الاستشراق ومؤسساته الاستعمارية لهو إضافة مهمة في شأن الشراكة الحضارية. وكذا الحال في شأن المؤسسات العلمية الإسلامية والمجلات العلمية الإسلامية التي نشأت في أمريكا الشمالية في نهاية السبعينيات من القرن المنصرم وكذلك حركة

المسلمين المنحدرون من أصول أفريقية، كل ذلك الزحم العلمي والحضاري الذي نشأ في أمريكا الشمالية. ولعل أطروحة "إسلامية المعرفة" والمؤسسات العلمية التي دعمتها يرجع الفضل فيها للحراك الفكري والثقافي للوجود الإسلامي في أمريكا الشمالية والأثر الواضح لعدد من رموزه في المؤتمر العالمي للتعليم الإسلامي الذي انعقد بمكة المكرمة عام 1977 وما تبعه من تطورات فكرية.

هذه الملحوظة لا تقدح في قسمة السفر القيم، ولا تقلل من قيمته التنظيرية العالية الشأن.